شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

العهد المكي

٧٠

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

العهد المكي [١] ١

- المراد بالعهد المكي ٢
- وقاية النبي ﷺ من التلبس بالمحرمات قبل البعثة ٣
- زمن العهد المكي ٤
- تهيئة الداعي إلى الله ٦
- مراحل الدعوة في العهد المكي ٨
- التعامل مع الخصوم ٩
- تعامل النبي ﷺ مع أتباعه ١١
- الرفق في العهد المكي ١٣
- الهجرتين ١٥
- هدي النبي ﷺ في الدعوة ١٦

[١]) رابط الحلقة
https://www.youtube.com/watch?v=QUZC7tKgpSU

المراد بالعهد المكي

المراد بالعهد المكي هو دعوة النبي ﷺ التي سبقت هجرته سواء كانت في مكة أو في غيرها من مكانٍ عمد إليه النبي ﷺ مثل أسواق المشركين وغيرها ، فلقد كانت الدعوة في العهد المكي دعوةً للتوحيد مجردًا عن العبادة ، فكان النبي ﷺ يدعو للتوحيد ويدعو لترك بعض المحرمات وأما العبادات فلم يكن ﷺ يأمر على شيء فكان حث دون أمر ، وأما الأمر فاقتصر في ذلك العهد على التوحيد لله تعالى وإخلاص العبودية له من صلاة وركوع وسجود ونحر ونذر وغير ذلك ، كما كان النبي ﷺ ينهى عن الشرك بالله والإشراك معه غيره وهذا هو القدر المشترك بين الدعوة في العهدين المكي والمدني وفي دعوة جميع الأنبياء .

وهذا يؤخذ منه أمر مهم جدًا : أن الخط الأول في أي دعوة هو التوحيد وهو ما كان عليه سائر الأنبياء ويجب أن يبتدئ به وألا يبدئ بغيره فأي دعوة تبدأ بغير التوحيد فليست على هدي الأنبياء ، وكما جاء في الحديث قوله ﷺ (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)[٢] ولهذا اتحدت دعوتهم .

وقد جاء في الصحيحين في بيعة العقة (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : " بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلا تَسْرِقُوا ، وَلا تَزْنُوا ، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ ، وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ ، فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)[٣] فهذا يعني أن دعوة النبي ﷺ كانت في بادئ الأمر للتوحيد للمكيين ولغير المكيين من الغرباء وغيرهم .

٢) رواه البخاري (٣٤٤٢، ٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) (١٤٣، ١٤٤، ١٤٥).
٣) رواه البخاري في صحيحه (١٤٣/٣) رقم (٣٦٧٩) .

وقاية النبي ﷺ من التلبس بالمحرمات قبل البعثة

قد وقي النبي ﷺ من التلبس بشيء من المحرمات قبل البعثة والنبوة ; ذلك أن الله تعالى وقاه من ذلك لكن النبي ﷺ لم يكن على علم وإنما العلم جاء بعد ذلك ولهذا يقول تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾(سورة الضحى :٧) قيل المراد بذلك هو عدم العلم وذلك أن الإنسان إذا لم يكن عنده علم فهو ضال فامتن الله تعالى عليه بالعلم بالله بعد أن كان خاليًا ، فالنبي ﷺ عُصِم من الوقوع في المحرمات لكنه لم يكن على علم بالعبادة ولا الصلاة إلا ما كان فيه على الفطرة السليمة والسليقة الصحيحة وبقايا الحنيفية وكذلك الطواف عند البيت ولكن كان على الفطرة ; ولهذا لم يُذكر عنه أنه كذب أو شرب خمرًا أو فعل فاحشةً أو قال باطل وإنما كان على الفطرة الصحيحة والسليقة المستقيمة التي فطر الله تعالى الناس عليها ، وقد جاء خبر منكر عند الحاكم في كتابه المستدرك عن طوافه ﷺ على الأصنام وهذا خبرٌ منكر وعامة الأصول والروايات لا تذكر عن النبي ﷺ شيء من ذلك ، ونجد مما يؤيد هذا أن خصوم النبي ﷺ لم يقولوا له أنك كنت معنا فتركتنا !! مما يدل على أنه ما كان يتلبس معهم بما كانوا يفعلون وإلا لكان من أقوى حجهم عليه أنك كنت معنا فيما تنهانا عنه الآن !. فكان على الفطرة السليمة والسليقة المستقيمة ﷺ .

زمن العهد المكي

قد تأتي النبوة إلى النبي قبل سن الأربعين مثل نبي الله عيسى وكذلك نبي الله يوسف فقد جاءتهم النبوة قبل ذلك وأما ما يتعلق بمواجهة الناس فالأصل أنها تكون في الأربعين ولهذا ينبغي أن نفرق بين النبوة وهي نزول الوحي على النبي وبين الأمر بالبلاغ .

والنبي ﷺ قد أنزل الله تعالى عليه وحيه على الأربعين على الأرجح .

وأما نبي الله عيسى عليه السلام فكان الوحي يأتيه وهو صغير قالوا في سن الثانية عشر فكان يلعب مع الصبيان وكان يُنبئ الصبيان بما أخفى أهلهم عنهم من الطعام ومن مكنوزهم كما قال الله تعالى ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (آل عمران : ٤٩) .

وكذلك في أمر نبي الله يوسف عليه السلام فكان الوحي يأتيه وهو صغير كما كان في الرؤيا وما كان من وحي مسموع وما كان في البئر وما جاءه في كيد إخوته له ، وأما الدعوة فكانت في سن الأربعين. وكذلك النبي ﷺ كانت دعوته في الأربعين وأما مدة بقاء النبي ﷺ في مكة داعيًا : فتنقسم إلى مرحلتين مرحلة النبوة التي أُخبر فيها أنها نبي موحى إليه والمرحلة الثانية هي مرحلة الدعوة ، والمدة الأولى لم يثبت في زمنها شيء محسوم وإنما جاء فيها تقديرفي بعض الروايات ما بين العشر سنين والخمسة عشر سنة ، والدعوة في العهد المكي كانت ابتداءً سرًا ، كما في قول الله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (سورة الشعراء :٢١٤) ثم جاء الأمر بالجهر ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(سورة الحجر :٩٤) فكان ذلك فيصل بين المرحلتين .

وجاء عن بعض الصحابة عليهم رضوان الله أنهم كانوا يعدون فترة النبوة ضمن العهد المكي لهذا الروايات في الزمن المكي مختلفة ومتباينة .

فقد جاء في البخاري (عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ مَكَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يَعْنِي يُوحَى إِلَيْهِ وَتُوُفِّيَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ سَنَةً)[٤] وَرُوِيَ أيضًا في ذلك أنها عَشْرُ سِنِينَ[٥] ، وَرُوِيَ أَيضًا في ذلك خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً[٦] .

وهذا التباين في الروايات بسبب : أن منهم من يدخل زمن النبوة في العهد المكي مع مرحلة الوحي ومنهم من لا يدخلها فالنبي ﷺ أُنبئ في بادئ الأمر ولم يؤمر بالتبليغ وذلك لأن الرسالة كانت ثقيلة والمهمة عظيمة للجهل المطبق الذي كان عليه العرب فيحتاج إلى تهيئة وتقوية ولهذا يقول الله تعالى ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (سورة المزمل : ٤) ، لماذا ؟ ما العلة في ذلك ؟ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (سورة المزمل : ٤) ولهذا أُمر النبي ﷺ بالصلاة والتحنث في غار حراء فكان يتحنث كنوع من التقوية الذاتية ولهذا يقول الله تعالى له ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(سورة المزمل : ١-٢) وكذلك تجد أن هذا خطاب لجميع الأنبياء . فقال الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام عند الشجرة ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾(سورة طه : ١٤) فأمره بالعبادة الذاتية وإقام الصلاة قبل بعثته لبني إسرائيل فالتربية النفسية العملية الباطنة من الأمور المهمة حتى يتهيأ لمواجهة الباطل فهي أقوى للداعي في المواجهة ولهذا أمر الله النبي ﷺ بالعبادة والخلوة فلما قوي أمره بالبلاغ والمواجهة .

وعليه تكون مدة العهد المكي تتراوح ما بين من العشر سنوات والخمسة عشر مقسمة بين النبوة وبين الدعوة السرية والعلانية ، وأما في المدينة فمحل اتفاق أن النبي ﷺ بقي في المدينة عشر سنين .

٤) رواه البخاري - كتاب المناقب، باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم - حديث:٣٦٦٠ .
٥) رواه البخاري كتاب المغازي، باب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - حديث:٤٢٠٤ .
٦) رواه مسلم كتاب الفضائل - باب كم أقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة والمدينة ؟ - حديث:٤٤٤٥ .

تهيئة الداعي إلى الله تعالى

حينما يكون الإنسان داعي إلى الله سبحانه وتعالى لابد أن ينظر لسالفة عمله من جهة قوته وثباته وعلمه الذي يدعو إليه فلابد من تقويته بالعبادة وتوكله واعتماده على الله فإذا قويت العبودية في قلبه ورسخ في هذا الجانب فإن الله عز وجل سيكون معه .

وهذا يتأكد أن الإنسان أحوج ما يكون لعون الله حينما يواجه خلق الله على اختلافهم مجوس ملاحدة مشركين منافقين فساق ضالين فالمواجهة ليست بالمواجهة اليسيرة بل إنها مواجهة شديدة فينبغي أن يكون له أصل في ذاته لأنه بحاجة للاعتماد على الله تعالى . لذلك لما قوي مقام العبودية في النبي ﷺ كفاه الله تعالى فقال جل وعلا ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (سورة الزمر : ٣٦) ثم عصمه الله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(سورة المائدة : ٦٧) كما أخبر النبي ﷺ أنه لن يموت قتلًا وهذا من بعض ما يترهب منه الداعي فطمئنه الله تعالى وكذلك سدده ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (سورة الأنفال : ١٧) وكذلك جاء في الحديث القدسي (من عاد لِيّ وليًا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيءٍ أحب إليّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأُعطينه ، ولئن استعاذني لأُعيذنه ، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترددِّي عن قبض روح عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته)[٧] والمراد بهذا أنه يسمع ولو سمع ميّز الحق من الباطل وهذا من توفيق الله ولو وقع بصره على شيء من الحق عرف مرتبته فالحق مراتب .

[٧]) رواه البخاري في كتاب الرقاق ح(٦٥٠٢).

ولهذا يرزق الله عبده تمييز الحق من الشر وتمييز الشر في دركاته كما يميز الحق في درجاته فيسدد ويعان وكذلك إذا كتب أو قال أو فعل يكون مُسدد وهذا من أثار العبودية .

لهذا نقول الداعي لله لابد أن يقوي نفسه بالعبادة والإخلاص لله تعالى حتى يسدده الله ; ولهذا نجد بعض الدعاة ممن يحملون الرسالة ويضعف لديهم مقام العبودية ينتكس في بداية الطريق أو نصفه والسبب في هذا ذاك الخواء القلبي في العبادة فأجسادهم شبه خالية وتقحموا ما هو أشد من ذلك مما يحتاج القوة ، ولهذا الأنبياء يتباينون في المقام فمنهم أولو العزم ومنهم دون ذلك وكلما كانت رسالة النبي أشد في مواجهة العدو كان مقام العبودية فيه أقوى ولهذا كان إمام المتعبدين رسول الله ﷺ وأفضل الأنبياء والمرسلين وأكثرهم عزمًا .

الموافقات بين العهد المكي والمدني

أعظم الموافقات بين العهد المكي والمدني هي دعوة التوحيد والنهي عن الشرك وهذا أصل الموافقات .

وأما الاختلاف فيمتاز العهد المكي باللين والرفق والدعة والمهادنة مع بقاء الأصل الذي يدعو إليه كما تتجلى الحكمة في العهد المكي أكثر من العهد المدني والسبب في هذا كثرة الأعداء وشدة شراستهم من جهة العدة والعدد والضعف المادي الذي يلحق النبي ﷺ وأتباعه .

وكذلك من سمات العهد المكي قلة الأتباع فإن الاتباع في مكة أقل ; وفي هذا أن الدعوة ليست بالمدة فدعوة مكة أكثر زمنًا من دعوة المدينة والحق واحد والمخاطبون كعقول بشرية واحدة في حين أن الأتباع في المدينة كانوا أكثر !.

وكذلك من وجوه الاختلاف الجهاد : فكان الجهاد في المدينة ولم يكن في مكة . وكذلك كان ﷺ يلين مع المخالفين في مكة ما لم يكن منه في المدينة من قوة وهذا من سياسته الشرعية ﷺ.

مراحل الدعوة في العهد المكي

الدعوة السرية في مكة موجودة وثابتة في ظواهر القرآن والسنة لكن المدة الزمنية اختلف فيها منهم من قال أنها كانت سنتين ومنهم من قال ثلاث سنوات ومنهم من قال أكثر ، والدعوة السرية شبيه بوجود جوانب العبودية ما قبل وجوب الدعوة فيحتاج لقيام الأمر في نفس الداعي وفيمن حوله لأن الحق حينما يبدأ في بيئة شديدة الظلم والبطش والجهل والبعد ويقل النصير وينعدم ويقوى العدو في بطشه فربما تستأصل شأفة الحق .

فسرية الدعوة منها مقاصد منها : التمهيد للمواجهة ومنها أن يكون له مؤيد من المحيط القريب فإن العصبة تحمي فهي شبيهة بالحائط . ولما بدأ النبي ﷺ بدأ بالأقربين من أهل بيته ودعا أبابكر ومن حوله وجد منهم حائط يحوطه سواء كانوا من أهل بيته أو من عشيرته ، ولهذا نجد أن أعظم نصير للإنسان هم الأقربون ، ولهذا بعض الأنبياء كان يعتمد على قومه بالنصرة ولو كانوا مشركين وهذا انتصار المؤمن بالكافر ليس ولاء ولكن نوع من الانتصار لدين الله فقد يؤيد الله دينه بالرجل الفاجر كما في قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾(سورة هود :٩١) فتهيب المشركون وجود قوم النبي ﷺ فلم يعتدوا عليه بسبب قومه .

فأراد النبي ﷺ في دعوته السرية دعوة الأقربين لأنهم أولى الناس بالخير كما أمره الله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (سورة الشعراء :٢١٤) وقد جاء في الحديث (عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ قَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا تَابَعَهُ أَصْبَغُ عَنْ ابْنِ وَهْبٍ عَنْ يُونُسَ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ)[٨] .

[٨]) رواه البخاري ٤٧٧١ ومسلم ٣٥١ ،

فبدأ بالأقربين فأخذ يدعوهم شيئًا فشيء فلما قويت الشوكة تعدى لبقية الكفار والمشركين فوقف على جبل الصفا وبدأ يدعوهم بطنًا بطنًا والله أعلم .

التعامل مع الخصوم

الخصوم ليسوا على مرتبة واحدة ومن سياسة النبي ﷺ الشرعية في أعدائه أنه لم يجعلهم على مرتبة واحدة وإن اتحدوا في الدين وهذا من الفقه في الدين :

فالمشركون على مرتبتين منهم مشركون لا يظهرون العداوة ويسالمون وبقوا على جهالتهم .

والنوع الثاني : المعاندون المستهزؤون المتربصون بالنبي ﷺ وأتباعه ولهذا قال الله تعالى ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ* إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾(سورة الحجر :-٩٤-٩٥) أخبره الله تعالى أن الناس سيكونون معه على حالين : حال المتربصين المعاندين فسيكفيه الله تعالى إياهم والمعرضين الجاهلين الذي أمره بالإعراض عنهم ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾(سورة الاعراف :١٩٩) .

وأما النوع الأول وهم الجاهلون الذين يعبدون الأصنام ويبقون على ضلالتهم لكن لم تجلبه الدعوة للعداوة فربما يكون الكافر مناصر أيضًا فيقول : دعوا فلانًا طالما أنه لم يؤذينا.

ومن الفقه إذا كان للإنسان أعداء على ملة واحدة عليه أن يقسمهم كما قسم الله تعالى لنبيه ﷺ ، أقوام يعادونه وأقوام يناصروه ولو خالفوه ، ولهذا نجد أن النبي ﷺ أخذ يحوطه بعض المشركين من الجاهلين الذين بقوا على ضلالهم من المشركين كأبي طالب عم النبي ﷺ .

وأبو طالب من جهة عقيدته التي مات عليها كان على نفس ملة أبي لهب وأبي جهل ولكن لم يكن النبي ﷺ يتعامل معه بالقسوة والشدة كما كان يتعامل مع أبي لهب وأبي جهل وسائر كفار قريش .

كما جاء في الحديث الصحيح لما أمره الله تعالى بالصدع : صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا ، فَجَعَلَ يُنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ ، يَا بَنِي عَدِيٍّ ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ ، أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ ، فَقَالَ : " أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا ، قَالَ : فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ، فَنَزَلَتْ : تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ { ١ } مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ { ٢ } سورة المسد آية ١-٢ "[٩] .

ومن هنا جملة من المعاني أن العداء بدأ بالانقسام بين الإعراض والاستهزاء وكان أول المستهزئين أبا لهب بدأ بالاستهزاء والسخرية وكذلك كان الإيذاء من أبي جهل الذي جاء النبي ﷺ وهو يصلي ساجد فوضع عليه سلا الجذور فجاءت فاطمة وأزالته من على ظهره ودعت عليهم فقام النبي ﷺ ورفع يديه وأخذ يدعو عليهم ﷺ واحدًا واحدًا ، فهذا فيه أن أعداء النبي ﷺ فيهم من التنوع والاختلاف .

وجمع الأعداء في صف واحد من جهة المواجهة والجهل عمل خارج عن هدي النبي ﷺ وفيه مخالفة لهديه ﷺ .

وقد كان أبو طالب مناصرًا للنبي ﷺ وهو على عقيدة كفار قريش فكان خطاب النبي ﷺ مختلف عن خطابه لغيره من المشركين فكان يقول لهم ﷺ (قَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ)[١٠] لكن مع أبي طالب كان يلين ، بل استفاد النبي ﷺ من مناصرة أبي طالب في دعوته وفي نصرته وكان يأوي إليه عند ورود الشدائد ، ولهذا ربما يحتاج المصلح في رسالته لمن ينصره ولو كان من غير ملته ، فالنبي ﷺ كان يرسل بعض أصحابه مهاجرين إلى النجاشي وكان نصرانيًا لكن كان يناصر العدل ويدفع الظلم .

وأبو طالب كان مناصرًا للنبي ﷺ وله أثر في ذلك فقد جاء عنه أنه قال:

والله لن يَصلوا إليكَ بجمعِهِمْ حتى أُوَسَّدَ في الترابِ دَفينا

[٩]) رواه البخاري ٤٧٧٠.
[١٠]) رواه أحمد في المسند:٢/٢١٨رقم (٧٠٣٦)

فاصدَعْ بأمرِك ما عليكَ غَضاضةٌ وأبشِرْ بذاكَ ، وقرَّ منهُ عُيونا
ودَعَوْتَني، وزَعمتَ أنك ناصحٌ ولقد صدقْتَ وكنتَ ثَمَّ أَمينا
وعَرضْتَ ديناً قد علمتُ بأنَّهُ مِن خيرِ أديـــانِ البريَّة دِينا
لولا المَلامـــةُ أو حِذاري سُبَّةً لوجَدْتني سَمحاً بذاك مُبِينا[11]

فأبو طالب في ذاته يعلم بصدق النبي ﷺ ولكن حمية الجاهلية متأصلة متجذرة في العرب وفي قريش فكانوا يكابرون ولذلك لم يجعله النبي ﷺ في صف واحد مع أبي لهب وأبي جهل .

تعامل النبي ﷺ مع أتباعه

لقي النبي ﷺ في مكة أشد ما لقى وزمن الأذى الجسدي والمعنوي كان في مكة أعظم من المدينة ولهذا بعض الناس ممن يرون أن ما لقيه النبي ﷺ في غزوة أحد أشد ما لقى ; هذا فيه نظر!.

ولهذا جاء عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، أَنَّهَا قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟ فَقَالَ : (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ ، فَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ كُلَالٍ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ – عَلَى وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ ، فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ) . قَالَ : (فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ) قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ ، وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) [12] .

[11]) خزانة الأدب: ٢ / ٧٦، البداية والنهاية: ٣ / ٥٦، شرح نهج البلاغة: ١٤ / ٥٥ كتاب ٩، فتح الباري: ٧ / ١٩٤، ١٩٦، المواهب اللدنية: ١ / ٢٢٣، السيرة الحلبية: ١ / ٢٨٧، ديوان أبي طالب: ص ٤١، السيرة النبوية لزيني دحلان: ١ / ٤٥، أسنى المطالب: ص ١٠.
١٢) رواه البخاري ٣٢٣١ ، ومسلم ١٧٩٥ .

فكانت عائشة صغيرة في مكة آنذاك ولم تدرك ما فُعل به ﷺ وفي هذا جملة من الفوائد :

أن الأذىٰ المعنوي مثل الطرد والتشويه والاستهزاء أشد من الأذىٰ المادي البدني مثل ما لحقه في غزواته .

أيضًا أن الانتصار لابد أن يكون لله لا للنفس ; لهذا النبي ﷺ لو كان ينتصر لنفسه لأمر ملك الجبال أن يطبق علىٰ أهل الطائف الأخشبين !.

فينبغي للإنسان أن ينأىٰ بنفسه عن الانتصار للنفس ويجعل غايته الانتصار لله تعالىٰ والانتصار للحق وإلا تحول من داعي لله إلىٰ داعي لنفسه .

وأتباع النبي ﷺ هم أنواع ، والغالب أن بداية الأتباع كانوا من الأقربين ثم الذين استجابوا للنبي ﷺ وهم بالعشرات في مكة ثم أسلم طوائف ممن كانوا في المدينة وجاءوا للنبي ﷺ في العقبة مرتين وكان أخرهم سبعون رجلا وامرأتان في بيعة العقبة الثانية واختار منهم النقباء كما جاء في حديث عبادة بن الصامت ، فالنبي ﷺ كان يتعامل معهم كلٌ بحسب .

فمنهم أقوام يستطيعون النصرة فكان النبي ﷺ بينهم كخديجة وورقة بن نوفل وفاطمة وأسماء وأبي بكر وقد كان أول من أسلم من الرجال وعلي بن أبي طالب عليهم رضوان الله تعالىٰ وغيرهم ممن لحق بهم كعمرو بن عبسة وأبي ذر وغيرهم فالنبي ﷺ جمعهم خلفه تجيشًا له فتعامل بحكمة فيريد أن يأتي الناس خلفه ليُري خصومه فكان النبي ﷺ يقسم الأتباع إلىٰ أقسام .

ومن الأتباع ضعفاء لا يملكون إلا إتباع الحق ولا يملكون نصرة فكان النبي ﷺ يعطيهم الحق ويقول له لا تأتوا خلفي لأنهم لا يستطيعون أكثر من هذا ; ولهذا جاء عن عمرو بن عبسة رابع الإسلام (قُلْتُ : فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ : " حُرٌّ وَعَبْدٌ " وَإِذا مَعَهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَعَبْدٌ – بِلَالٌ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ – قُلْتُ : إِنِّي مَعَكَ مُتَّبِعُكَ ، قَالَ : لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا ، وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ ، فَإِذَا سَمِعْتَ أَنِّي قَدْ ظَفِرْتُ فَالْحَقْ بِي)[١٣] لأنه يعلم أنه في نصرته له سيتأذىٰ فالأولىٰ به أن يتعبد لله تعالىٰ ويبقىٰ مقتنع بالحق ويلحق بالنبي ﷺ في المدينة .

[١٣]) رواه أحمد من طريق شداد أبي عمار، قال: قال أبو أمامة: يا عمرو بن عبسة، بأيّ شيء تدّعي أنك رابع الإسلام؟ .

وعليه فإن أتباع النبي ﷺ على طوائف :

منهم أقوام يستطيعون النصرة والثبات مثل أبي بكر وعمر بن الخطاب وعلي رضي الله عنهم فكانوا مع النبي ﷺ وحثهم على النصرة ولم يأمرهم بالانصراف عنه وإنما بقوا معه ﷺ .

وأقوام لا يستطيعون النصرة لضعفهم فيقتنع بالحق وينتظر انتصار الحق ليلحق به .

ولهذا لم يرسل النبي ﷺ أبابكر للحبشة ولم يرسل عمر بن الخطاب ولا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم لأن مثل هؤلاء لديهم قدرة على النصرة والمواجهة وأما الأخرين أراد أن يحفظ عليهم أنفسهم فأرسلهم إلى الحبشة ورجع منهم شيء يسيرًا ثم أرسلهم النبي مرةً أخرى . وكان من أخر من رجع في السنة السابعة من الهجرة وكان من أخر ما جاء جعفر حتى قال النبي ﷺ (وَاللهِ مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَفْرَحُ ، بِفَتْحِ خَيْبَرَ ، أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ)[١٤] .

الرفق في العهد المكي

من السياسة الشرعية في الشد والجذب بين الخير والشر أنه يُنظر إلى مواضع القوة ولا ينظر لقيم الحق ، فلقد كان الباطل في مكة أشد جلاءً ووضوحًا من الباطل في المدينة فالباطل في المدينة فيه نفاق مستتر يصعب تمييزه بخلاف الباطل المتجلي في مكة لكن لا يكون هذا دافع للمواجهة ولكن ينظر للقدرة عليه حتى لا تسأصل شأفة الحق فعدم تمييز مواضع القوة مما يؤخر الرسالة بالمواجهة الخاطئة والوسائل الموصلة للحق الكاسرة للباطل ; ولهذا كانت سياسة النبي ﷺ الشرعية في المواجهة على اللين والرفق في مكة بعكس المدينة وذلك للضعف المادي الذي كانت عليه الدعوة آنذاك ; لهذا إذا تجلي الباطل لا يدفع الإنسان للمواجهة إلا بالنظر إلى القوة على المواجهة وتمييز مواضع القوة والضعف حتى لا تستأصل شأفة المسلمين ولهذا النبي ﷺ كان يدعو باللين والرفق في

[١٤]) رواه الحاكم في المستدرك ٤٩٤١ .

حين يستعجله الصحابة بالمواجهة فنجد أن الآيات المكية أكثرها في التثبيت والتصبير والسبب في ذلك أن الشدائد على النبي ﷺ أقوى كما يظهر في قول الله تعالى ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾(العنكبوت : ١-٢) وغير ذلك من الآيات ، وكذلك ما جاء في حديث خباب (أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا تَدْعُو اللهَ فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ فَقَالَ لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ)[١٥] .

فبيّن النبي ﷺ لهم الصبر ثم جاء عنه ﷺ (لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الدِّينُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلا يَتْرُكُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْتَ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ ، عِزٌّ يُعِزُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ الإِسْلامَ ، أَوْ ذُلٌّ يُذِلُّ بِهِ الْكُفْرَ)[١٦] والمراد بالبلاغ أن الله سيعمم الرسالة ، وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ من تلك العزة وتلك الذلة .

ولكن النبي ﷺ كان يتعامل بالرفق لأن الباطل أقوى وشوكته قوية في مكة فالنصرة كانت ضعيفة والرفق واللين سببه حتى لا تستأصل شأفة الإسلام بقوة المشركين وقد جاء في هذا جملة من الأخبار أن هناك من الأتباع من يدعو بأفعاله لاستئصال شأفة المسلمين بالاستدعاء واستعمال القوة في غير موضعها ، كما في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾(سورة النساء :٧٧) فقد نزلت هذه الاية في مكة وقد جاء في التفسير عن ابن عباس إن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي ﷺ بمكة فشكوا إنا كنا في عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة فقال إني أمرت بالعفو فلا تقتلوا القوم فلما حوله الله تعالى إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله تعالى هذه الآية.

مع شدة الأذية إلا أن العفو أكبر ، والأذية التي كانت عليه في المدينة أقل ومع ذلك فرض عليه الجهاد فلم يجاهد النبي ﷺ إلا في المدينة ، والنبي ﷺ لم يعطل الجهاد في مكة تعطيلا ولكن تهيئةً حتى

[١٥]) رواه البخاري (٣٦٣٩).
[١٦]) رواه أحمد رقم (١٦٩٩٨) ٤/ ١٠٣، والطبراني في مسند الشاميين رقم (٩٥١) ٢/ ٧٩ ، والحاكم في المستدرك رقم (٨٣٢٦) ٤/ ٤٧٧ .

يقوىٰ الإسلام بالتدرج فيرجئ لا يلغي ، فانشغل النبي ﷺ بالتعليم في مكة في دار ابن الأرقم حتىٰ تمكن وانتشرت دعوته ثم ارتحل للمدينة فكان الأمر بالقتال والجهاد وكان ايضًا علىٰ مراحل وطوائف .

الهجرتين

الهجرة الأولىٰ كانت ذهابًا وإيابًا في العهد المكي ، وأما الهجرة الثانية فكانت ذهابًا في العهد المكي وإيابًا في العهد المدني ، وأدركت الهجرة الثانية شيء من العهد المدني فكانت تأتيهم في ذلك الأيات وهذا يدل علىٰ اختلاف الرقعة وفي هذا جملة من المعاني :

أن الهجرة يجوز أن تكون من بلد كافر لبلد كافر يؤذن فيها بقيام شعائر الإسلام فقريش كانت دار كفر وشرك فلما فتحها النبي ﷺ تحولت لدار إسلام ولا هجرة بعد الفتح كما أخبر النبي ﷺ وبقيت علىٰ هذا الأمر ، ولكن الحبشة كانت دار كفر لأن حاكمها كافر والناس نصارىٰ فهاجروا من مكة وهي دار كفر للحبشة وهي دار كفر وسميت هجرة وكان لهم أجر الهجرة كما جاء في الصحيح فأخرجهم النبي ﷺ من بلد كفر لبلد كفر لكن الحبشة يسمحوا لهم بالتعبد وإقامة دين الله من غير أذية ، ولكنها هجرة تربص لا هجرة إقامة ; فجعلهم النبي يتربصون ولهذا لما ظنوا أن أمر النبي ﷺ قوي في المدينة رجعوا من الحبشة للمدينة ثم عادوا مرة أخرىٰ حتىٰ عاد أخرهم في السنة السابعة من الهجرة . فتلك الهجرة كانت لإقامة دين الله تعالىٰ ومن السياسة الشرعية إذا كان الأتباع لا يستطيعون النصرة فعلىٰ الداعي أن يبعدهم عن المواجهة ولا يقحمهم في مواجهة الأعداء وفيما لا يتحملون .

هدي النبي ﷺ في الدعوة

قد بين الله عز وجل أن سيرة النبي ﷺ وهديه يجب أن تُتَّبع على ما كانت عليه ولهذا يقول الله تعالى ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (سورة يوسف : ١٠٨) يعني على الطريق الذي كان عليه ، لهذا كان النبي ﷺ يغشي أسواق المشركين وما فيها من شركيات وفخر وجاهلية وبدع وضلال كغشيانه لسوق عكاظ وغيره فيغشي الشركيات التي كانت فيها من فخر وجهل وضلال ويتخذها منابر للدعوة لله وللتوحيد الحق والرسالة التي يدعو إليها لبيان الحق وجلائه **كما جاء في مسند الإمام أحمد من حديث جابر بن عبد الله قال (مكث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتبع الناس في منازلهم وأسواقهم بعكاظ ومجنّة ، وفي مواسم الحج في منى، «حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه فيقولون : احذر غلام قريش لا يفتنك ، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون عليه بالأصابع)**[١٧] .

ومن جاء بعده كانوا على نفس النهج وعلى ذلك السبيل على بصيرةٍ وهدى ورشاد والله أعلم .

١٧) رواه أحمد في المسند ٣/ ٣٢٢، ٣٣٩- ٣٤٠.